مجلة العلوم الإنسانية
العدد الثالث (2015م)

تقنيات صناعة الخزف فى حضارات السودان القديمة

ليلى مختار أحمد
جامعة السودان للعلوم و التكنولوجيا – كلية الفنون الجميلة و التطبيقية

المستخلص:

يعتبر الفخار من الحرف التى عرفها الانسان حيث ظهرت أول الاشكال الفخارية فى نهاية العصر الحجرى القديم الأعلى و بداية العصر الحجرى الوسيط (1555 سنة ق.م).وأهمية الفخار لا تنقص من كونه أداة استخدمها الانسان فى فترة معينة و لا يزال يستخدمها حتى اليوم فى كثير من المناطق ,بل لانه احدث تغييرات مهمة فى أوجه الحياة المختلفة حيث مهد لكثير من الصناعات الأخرىمجالاً متطوراً فعملية حرق الأوانى و الأدوات الفخارية مكنت الانسان من أن يتحكم ليس فقط فى درجة الحرارة و استخدامها الأمثل فى صنع الاوانى و الادوات بل سخرها ايضاً فى صهر بعض المعادن كالنحاس و الحديد، و بما ان ذلك جاء مصادفة فى البدء إلا أنه فتح آفاقاً رحبة لتكنولوجيا المعادن مما جعل بعض الدارسين يطلق على قدامى الفخاريين لقب المهندسين الكيميائيين الأوائل. و لعل من أهم الدوافع التى أدت إلى اختراع الاوانى الفخارية فى عصر ما قبل التاريخ الحاجة الماسة لها لغرض الطهى الجيد للطعام. و ذلك بالتحكم فى مقدار الحرارة و استقلالها بصورة مثلى و بأقل مجهود ممكن مقارنة بمواد اخرى استخدمت فى صنع الأوانى فى العالم القديم مثل الاخشاب و الجلود.

ABSTRACT:

pottery is one of the oldest crafts known to man. The first pottery shapes goes back to the end of the Upper Paleolithic and the beginning of the middle Stone Age (1555 years BC. AD)Man used pottery for ages as utensils which paved the way for the development of several industries especially metals smelting. Scholars describe ancient potters as the first chemistry engineers, for their contribution in discovering and developing metal smelting techniques such as copper and steal casting.
Perhaps the most important motive that led to the invention of pottery, in the prehistoric era, was the urgent need for using it as cooking utensils. Ancient potters successfully achieved controlling the amount of heat and use it optimally and with little effort as possible, compared to the processing of other materials used in making pots in the ancient world, such as wood and leather.

المقدمة:

هدفت الدراسة إلى معرفة الأساليب و الطرق التي يتمبها إنتاج الخزف في فترة الحضارات السودانية القديمة ,و ان المشكلة الاساسية هي تأسيس رؤية بصرية حديثة لتطوير صناعة الخزف بصورة أفضل. ومنالحقائق التاريخية الثابتة أن الفخار السودانى يعد من العناصر الإبداعية التى ظلت تميز الحضارات السودانية المتعاقبة،

و يؤكد أصالتها و تفردها و تقدمها على مر التاريخ.و حضارات كرمة و نبتة و مروى من أقدم الحضارات السودانية و أميزها أثراً فى تاريخ السودان و تركت تلك الحضارات تراثاً مادياً تركز فى شمال السودان و ظلتممتدةً حتى يومنا هذا.

خلال حضارة الخرطوم النيوليثية عد الفخار السودانى أول تقنية أفريقية شهد لها العالم بالريادة و التقدم من ناحيتي السبق الحضارى و علو المستوى الفني. أما خلال حضارة كرمة فقد كاد الفخار الكرمي يكون دليلا عليها كحضارة، و على عظمتها و ثرائها و تفردها ، حيث استطاع الخزافون أن يصوغوا من طينها اللازب أوعية بلورية الملمس و المظهر. أما الفخار المروى فهو يتحدث عن نفسهمن خلال اشكاله و أحجامه و ألوانه و تصميماته المتفردة

مشكلة الدراسة: يشكل الفخار جزءاً حميماً من حياة الناس، و لكن تغير الزمن و اختلاف وسائل و مواد صنع الاوانى و المعداتو مع التطور الصناعى برز إتجاه جديد للتعامل مع الفخار و قاد ذلك المتخصصين فى فنون الخزف يستهدفون تأسيس رؤية بصرية حديثة لتطوير هذه الصنعة بصورة افضل لمواكبة التنمية.

فروض الدراسة: اكتشاف تقنية تجهيز المصنوعات الفخارية و حرقها احدث دوراً كبيرا فى تطور ثقافة العصر الحجرى.

و دور الفخار فى تسجيل و قراءة تاريخ الحضارات من خلال الرسومات التى تحكى عظمة تلك الحضارات.

و انتشار صنعة الفخار بين قبائل السودان المتعددة لعب دولاً كبيلاً و تأثرت به هذه المجتمعات.

حدود الدراسة: تنحصر حدود هذه الدراسة ما بين فترة العصور الحجرية القديمة و الوسيطة والحديثة و حضارة الخرطوم و الشهيناب و فترات حضارة كرمة و مروى و نبته و الخزف النوبى ثم المعاصر.

اهداف الدراسة: تهدف الدراسة الى ان السودان ينتمى لحضارات و ممالك امتد ثقافتها لمجتمعات و اثنيات مختلفة داخل القطر.

و ايضاً ربط التراث المادى المتمثل فى الماضى و الحاضر من خلال المنتوجات الفخارية القديمة و المعاصرة.

و معرفة الاساليب و الطرق التى يتم بها انتاج الخزف الى جانب بعض الاضافات التى اضيفت للخزف الحديث.

و دراسة مجالات الثقافة المادية النتعددة خاصة الفخار.

اهمية الدراسة: تتناول هذه الدراسة الفخار و الخزف السودانى فى حضارات كرمة و مروى و نبته.و يعتبر الخزف فى السودان من اهم الفنون التطبيقية المتوارثة منذ أقدم العصور و تعود أهميته لتلك المخلفات الأثرية التى وجدت بكميات داخل مدافن الملوك.و يعتبر الخزف من اقرب الفنون للانسان و اكثرها صلة به.

إجراءات الدراسة:

تقنيات تصنيع و إنتاج الخزف فى العصور الحجرية: يبدى علماء الآثار إهتماماً خاصاً بدراسة الفخار القديم و أشكاله، و ألوانه و طريقة صناعته وزخرفته، كل هذا لما للفخار من أهمية فى التمييز بين الحضارات، فقد كانت صناعة الفخار من النشاطات التى مارستها كل الشعوب القديمة تقريباً، و يأتى الإهتمام بالفخار أيضاً لإستعماله بعد دراسته وتصنيفه فى التأريخ النسبى من ناحية أُخرى فإن الفخار الجيد الصنع ذو الزخارف الجميلة يفيد فى معرفة المستوى التقنى و الفنى للمجتمعات القديمة. و قسم (ويندورف) فترة العصر الحجرى القديم فى السودان إلى ثلاثة أقسام و هى :عصر حجرى قديم أسفل (Poalithic) وعصر حجرى قديم أوسط،(Mesolithic) وعصر حجرى قديم أعلى أو متأخر (حديث) (Neoithic).(سامية بشير .1999م.36).

صناعة الخزف فى العصر الحجرى القديم :

إن معرفة بداية العصر الحجرى القديم لها علاقة مباشرة بمسألة ظهور الإنسان فى السودان إذ أنه فى غياب الهياكل البشرية و الحفريات البشرية يصبح النشاط الإنسانى المتمثل فى قطع الحجارة هو الدليل الأوحد على وجوده، و إن كان لا يستبعد وجود إنسان عاش قبل الإنسان قاطع الحجارة.

(و قد ذكر أن فى تلك العصور القديمة كائنات شبيهة بالإنسان وجدت هذه الكائنات ما بين(500.000_250.000 ق.م) وجد فى جنوب أفريقيا و الأخدود الشرقى لأفريقيا و يسمى استرالوبثيكى (Australopithecus)هو كائن لقيط لغذائه جوال.اَوى إلى كهوف و قد إستعان بأدوات العصر الباوليثى Poalithic القديم.

ووجد كائن اَخر و يسمى هوموارَكتسى (Homo Ereetus) و قد سكن الكهوف و استخدم الاَلات الحجرية (العصر الميزوليثى الأوسط (Mesolithic) كما وجد ما بين (100.000_30.000 ق.م) فى حوض البحر المتوسط جنوب أوربا و شمال أفريقيا خاصة الشواطئ الفرنسية و يسمى الكائن (نايندرثال) (Neanderthal)و كائن اَخر يسمى (كروماقنون Cromagnon)و قد بنى بيوتاً و إصطاد و اَلف الحيوان و صنع أدوات العصر النيوليثى الحديث (Neoithic).)((مصطفى عبده.2005م.).

(و من مواقع العصر لحجرى القديم الأسفل المعرفة فى السودان موقع خور أبوعنجة فى مدينة أم درمان الحديثة الذي إكتشفه اَركل، لكنه لم يقترح له أى تاريخ. و إن إعطاء إي تاريخ و لو تقريبى لحادثة ظهور أول إنسان فى السودان يبدو أمراً صعباً فى الوقت الراهن.).(وليم آدمز.2005م.117.).

صناعة الخزف فى العصر الحجرى الوسيط:

وبما أن المخلفات الأساسية للأقوام الذين عاشوا فى هذه العصور هى أدواتهم الحجرية، فإن العلماء إعتمدوا على ذات الأدوات لتلمس طريقة معيشتهم، لقد تم العثور على هذه الأدوات على طول وادى النيل السودانى من وادى حلفا فى الشمال إلى الخرطوم فى جنوب الوادى، و فى المواقع الأُخرى على النيلين الأبيض و الأزرق و فى البطانة، بل و فى كل مواقع العصور الحجرية بالسودان أمثلة (خور أبو عنجة، وادى سيرو، وادى حلفا، شندى، الغابة،الكدادة، السقاى، البطانة،القاش و كسلا و غير ذلك).(سامية بشير.1999م.36).

وبما أن الأحوال فى كل هذه المناطق كانت متشابهة فى العصرين القديم الاسفل و القديم الأوسط على أقل تقدير، و فى نهايات العصر الحجرى القديم أو ما يعرف بفترة الحجرى القديم المتأخر بدأ ظهور النيليين فى الصناعات الحجرية و فى جوانب أُخرى كذلك.

إلا أنه وجدفي العصر الحجرى الوسيط بدأ الإنسان يعتمد على صيد الحيوانات الضخمة و إتجهوا أيضاً نحو صيد الحيوانات الصغيرة و صيد الأسماك و تبعاً لذلك إنتشرت فى هذا العصر أنواع جديدة من الأدوات الصغيرة لصيد تلك الحيوانات تميزت بصغر حجمها فهى فى الغالب لا تزيد على البوصة فى أطوالها و هى لهذا السبب كان يصعب إستعمالها لوحدها فكانت تركب مع جزء اَخر مصنوع من الخشب أو العظم يستعمل كمقبض، من هذه الأدوات الحجرية المثاقب و السنارات و رؤوس السهام و الأهلة، شاع فى العصر كذلك حراب عظمية لصيد الأسماك و إستعمال حجارة الرحى لأغراض السحن و لطحن، بعض المجتمعات كمجتمع الخرطوم مثلاً توصل إلى صناعة الفخار فى هذه الفترة.

من ناحية أخرى بدأ إنسان العصر الحجرى الوسيط فى الإتجاه نحو الإستقرار بالقرب من مصادر المياه كالأنهار و البحيرات و الوديان و لا شك أنه كان مضطراً إلى ذلك بسبب إزدياد الجفاف و التصحر و تبين الإكتشافات الأثرية أنه سكن فى منازل بسيطة للغاية كالأكواخ و القطاطى و أنه إعتمد فى غذائه على صيد الأسماك و الحيوانات البرية الصغيرة إلى جانب جمع الثمار الخلوية و تشير حجارة الرحى و الاَنية الفخاريةإلى أنه قد بدأ عملية إنتاج الطعام و حفظه فربما إستعمال حجر الرحى لطحن الثمار الخلوية وتمكن بذلك من صنع طعام الثديد (العصيدة) و لكن من المؤكد أنه لم يكتشف بعد الزراعة و لا إستئناس الحيوان.

و من هنا يتضح لنا أن العصر الحجرى الوسيط كان مرحلة إنتقالية من الحياة إعتمد فيها الإنسان كلياً على ما يوجد فى الطبيعة من غذاء إلى حياة جديدة أكثر تقدماً تهيأت له فى العصر الحجرى الحديث بعد إهتدائه بالزراعة و إستئناس الحيوان.

(يعتبر أ.ج.اَركل أول من استعمل لفظ أو إصطلاح حجرى وسيط (Metholithic)لوصف حضارة إفريقية ألا و هى تلك التى إكتشفها فى الخرطوم عام 1944م، تميزت حضارة الخرطوم عن الصناعات التى وصفناها بوجود الفخار و هذه السمة هى التى أكسبتها صفة حضارة و أخرجتها من نطاق الصناعات الضيق.).(سامية بشير.1999المرجع الأصلى وليم آدمزم.38).

بدأ الإنسان يستقر مما أعاد له هدوءاً نفسياً، و من هنا وصل مراحل من الإنتاج و الإبداع بطريقة أفضل من الفترة الأولى، فنجد.أن فترة إنسان خور أبوعنجة كانت ذات محدودية فى الحركة، أما فى الفترة الأخيرة فقد أصبح هناك سكنات جماعية مما أتاح فرصة الحماية الجماعية للأفراد من المخاطر التى كانت تواجههم من بعض الحيوانات المفترسة.

(و قد ورد أن فى هذه الفترة بدأ الإنسان يهتم ببعض الصناعات البسيطة و تعلم الزراعة و الصيد و فى تلك الفترة نشطت صناعة الخزف و الملابس و بدأت فكرة المقايضة بين الصناع و الزراع لإستبدال الإناء الخزفى بالحبوب لغرض إستخداماته الخاصة).(سامية بشير.1999م.37).

إهتم إنسان العصر الحجرى الحديث ببعض الإختراعات و الصناعة فالخزف كواحد من مكونات حياة الإنسان فى تلك الفترة إن ما وجد فى المواقع الأثرية يعتبر ذو أهمية لإحتوائه على كميات من القطع الفخارية ذات الأشكال العتيقة و الحواف الواسعة مثل الصحون و هناك الآنية المسماة كاليسيفورم (Calceiform) كان إستخدامها مرتبطاً بالطقوس الدينية و خاصة عند دفن أحد الملوك و كانت مصقولة على الدوام و تحتوى على زخارف متنوعة.

ويقول (أ.ج. آركل Arkell) رائد الدراسات ما قبل التاريخ فى السودان يحدد موقع الكدرو فى العصر الحجرى الحديث فى الخرطوم و يكشف فيها على حافة هضبة ذات مستودع لمنطقة سكنية،حيث وجدت عظام حيوانات أليفة و متوحشة و حجارة رحى، و أدوات من الحجر و شقف من الفخار بأعداد كبيرة و يؤكد (وليم آدمز) حقيقة حضارة السودان القديمة متمثلة فى حضارة الخرطوم و حضارة الشهيناب و يقول (إن فترة العصر الحجرى الحديث هى بداية نشاط الإنسان بمستوى متقدم من التفكير لإحتوائه حياته بصورة أفضل و نبدأ هنا بحياة إنسان خور أبوعنجة ثم حضارة الخرطوم القديمة و حضارة الشهيناب،و حتى حضارات المجموعات التى صنفها (رايزنر) إلى ثلاثة مجموعات بالإضافة إلى المجموعة (x)).

إذاً فأن فترة حضارة الخرطوم و الشهيناب هى إمتداد للحضارات القديمة التى أثرت على الثقافة السودانية حتى هذه المرحلة الحالية. فلابد من المزيد من الدراساتلفترة ما قبل التاريخ فى السودان و التى ترجع لستة ألف سنة

للوقوف على الحقائق التى وردت فى هذه الحضارات.((يقول (جاك ريتولد ولينج إكشير نباك) حول هذه الفترة ما يلى (...إن هذه العصور تنوعت إلى درجة تقديم العديد من المظاهر الثقافية للعصر الحجرى القديم المتأخر حتى حوالى ألف سنة و تعكس المعدات المؤلفة أساساً من حجارة دقيقة ومعدات من بلاد المغرب و بلاد الشام، و مناطق أواسط أفريقيا،و بالنسبة للألف الثامن أيضاً فقد قدمت المواقع الأثرية فى الخرطوم (مستشفى الخرطوم حالياً) و عند الشلال السادس أوائل علامات صناعة الخزف الذى ليس له ما يوازيه فى وادى النيل المصرى.)).(تاور آدم كوكو.1997م–1999م.3.).

لقد صنع أهل الخرطوم الميثوليثية فخاراً ذي زخارف مميزة هى عبارة عن خطوط متموجة و قد إتصف هذا الوصف بفخار الخرطوم للدرجة التى أصبح من الأمور العادية أن يطلق على ذات الحضارة إسم حضارة الزخرفة المتموجة (Wavy Lineclture).

أهم ما يميز حضارة الخرطوم كما ذكرنا هو الفخار ذو الزخرفة المتموجة، وجد إلى جانبه بعد فترة لاحقة نوع آخر استعملت فيه إلى جانب الزخرفة المتموجة زخرفة منقطة أسماها (آركل Arkell) (Dotted wavy line) وهو يعتبر تطور للنوع الأول، و قد عثر على قطع من النوعين فى مواقع عديدة فى السودان و خارج السودان حيث عثر على قطع منه فى (وانيانقا) فى تشاد بل و فى الهوجر على بعد ألف ميل غرب وانيانقا.

من ناحية الشرق ينتشر الفخار المتموج حتى كسلا، و فى الشمال حتى كريمة و إلى الجنوب حتى كوستى و لكن لم تنتشر تقارير مفصلة إلا عن موقعين، الأول هو موقع الخرطوم الذى حفره (آركل) عام 1944م، و الثانى هو الشابونة و يقع على الضفة الشرقية للنيل الأبيض شمال مدينة الدويم الحديثة و قد حفر فى بداية السبعينات، الموقع الرئيسى هو المكان الذى توجد فيه الآن مستشفى أمراض القلب شمال محطة السكة حديد الخرطوم و هو عبارة عن جبانة و مستوطنة (Settlement) و تشمل المخلفات التى عثر عليها على فخار و أدوات حجرية و عظمية و حول تاريخ الفخار، الأشكالالرئيسية عبارة عن سلطانيات كبيرة بنية اللون تأخذ شكل السلةوجدير بالذكر أنه لم يعثر على نماذج مكتملة منها علماً بأن هذه الآنية صنعت يدوياً، و استعمل فى زخرفتها عظمة السلسلة الفقرية لسمكة القرقور و يكون ذلك بتمشيط الإناء بهذه العظمة فى مرحلة ماقبل الحرق و يعتقد (آركل) أن أهل الخرطوم من أوائل الشعوب فى أفريقيا بل فى العالم التى توصلت لصناعة الفخار وهو يرى أن هذا الإنجاز قد حدث فى الألف الثانية قبل الميلاد ثم إنتشر من بعد ذلك للمناطق الأخرى.

صناعة الخزف في العصر الحجرى الحديث :

وكما وضح أن الوضع فى العصر الحجرى الحديث هو مرحلة من مراحل الحضارة استمر الإنسان فيها يستعمل الأدوات الحجرية لكنه فى ذات الوقت خطى خطوات كبيرة فى إتجاه الحضارة عندما أكتشف الزراعة و عندما نجح فى استئناس بعض الحيوانات فأصبح بذلك منتجاً للطعام بعد أن كان جامعاً له فقط. من الخصائص الأخرى لهذا العصر صناعة الفخار العادى و صناعة الفخار المصقول والذى كان يصنع يدويا آنذاك.

وتعتبرالشهيناب نموذجاً لموقع من المواقع التى اكتشفت فى منطقة الخرطوم و هذا الموقع عبارة عن شاطئ قديم للنيل فى بلدة الشهيناب الحديثة على الضفة الغربية للنيل حوالى 30 ميلاً شمال أم درمان. وفى الموقع قد تم العثور على العديد من المخلفات تشتمل على فخار و أدوات حجرية عظمية و حُلي، فقد أشار (اَركل) إلى وجود تاريخ واحد لبدايتها، أما نهايتها فيتفق العلماء الآن على أن فترة النيولينك وسط السودان قد إنتهت حوالى سنة (2800 ق.م) فقد صنع أهل الشهيناب أوانى فخارية ذوات أسطح لامعة و مصقولة وهذه الخاصية أي (الصقْل) يعتبر من الإختلافات الرئيسية بين فخار الخرطوم و الشهيناب، و للحصول على سطح لامع يتم عن طريق تلميعه بواسطة حصاة بعد أن يجف الصلصال تماماً و قبل عملية الحرق.

أهم ما أنتجته الشهيناب من فخار سلطانيات بنية اللون قطرها حوالي 45 سم، كانت الأسطح بعد أن تلمع تزخرف زخارف سطحية تستعمل فيها نوع من الأصداف النيلية، وجد عندهم كذلك أشكال أخرى عبارة عن أوانى سوداء أو بنية أو سوداء من الداخل.

تعتقد الباحثة ان الحافة السوداء هى محاولة لتقليد أوانى القرع، فى حضارة الخرطوم فقد حاولوا تقليد السلال و يظهر ذلك فى الصور المرفقة فى البحث.

الحفريات التى جرت فى السودان بعد إكتشاف حضارة الشهيناب أكدت أن فخار الشهيناب على عكس فخار الخرطوم (العصر الحجرى الوسيط) كان محدود الإنتشار حيث أنه ينحصر فى حدود 60 ميلاً خارج مدينة الخرطوم.

وقدعقد (اَركل) مقارنة بين حضارتى الشهيناب و الفيوم المصرية توصل إلى وجود كثير من أوجه الشبه بين الحضارتين فى صناعة الفخار، كما لاحظ بعض الإختلافات، و قد كان وجه الشبه فى تلميع وصقل الفخار، و تبين فى وجهة أخرى فى الحفريات أن صناعة الفخار كانت مزدهرة جداً فى الكدرووهو بصفة عامة يشبه فخار الشهيناب بإستثناء غياب الزخرفة بالنقط التى عرفت فى فخار الخرطوم، عرف أهل الكدرو فن طلاء أسطح الآنية الفخارية بدهان الهامتيت الأحمر، و هنابدأت الصناعة الحقيقية.

لكل حضارتبداية و نهاية كما أن أي حضارة و إن إحتوت على عناصر الوحدة الداخلية و التميزْ عن غيرها من الحضارات إلا أنها لا تبقى على وتيرة واحدة خاصة إذا إمتدت الفترة طويلة، و هذا القانون العام ينطبق على حضارة المجموعة (أ) التى هى فى المقام الأول حضارة مادية أهم عناصرها صناعة الفخار و يليه فى الأهمية عادات الدفن و ما تحتويه القبور من مصنوعات محلية و مستوردة.

فقد مارس أهل المجموعة (أ) العديد من الصناعات تأتى فى مقدمتها صناعة الفخار التى تعتبر من الصناعات الأصيلة فى السودان حيث أنها عرفت منذ العصور الحجرية عند أهل حضارة الخرطوم المثيوليثية. لكن كانت هذه الصناعة فى تطور مستمر خاصة من حيث أشكال الآنية و زخرفتها.

الأشكال فى صناعة المجموعة (أ) شملت الأوانى الصغيرة للشرب و السلطانيات الصغيرة للعظماء و أخرى متوسطة لتناول الطعام، و الجرار مختلفة الأحجام لحفظ الطعام و الشراب و غيرها من الأشكال.

الطريقة المستعملة فى صناعة الفخار هى اليدوية حيث أن العجلة لم تعرف فى السودان قبل الفترة النبتية بالرغم من ذلك فقد كانت الصناعة جيدة و متينة و بخاصة فى فترة المجموعة (أ) المتأخرة التى ظهرت فى نوع فاخر أطلق عليه رجال الآثار إسم (فخار قشرة البيض كناية عن نعومة أسطحه ورهافة جدرانه)(نجم الدين محمد شريف.1971م.21).

لم تكن صناعة الخزف مجرد حرفة الغرض منها سد إحتياجات المجتمع من الأوانى المنزلية رغم أنها بدأت كذلك،لكنها تطورت فى مرحلة المجموعة (أ) المتأخرة لتصبح واحدة من أرقى الفنون السودانية القديمة يشهد على ذلك الألوان الزاهية التى كانت تلون بها الآنية و الزخارف الجميلة التى زينت أسطحها.

وتنقسم زخارف المجموعة (أ) إلى نوعين الأول ؛الزخرفة مطبوعة و هذه يستعمل فيها فى الغالب اللون الأحمر الغامق على الأسطح البيجية اللون،أما النوع الثانى هو الزخرفة بالتحزيز و تكون بحفر أشكالهندسية أو أشكال غير منتظمة على الأسطح السوداء ثم يملأ التحزيز من بعد بالجير الأبيض، و النوع الأول هندسية أو أشكال غير منتظمة على الأسطح السوداء ثم يملأ التحزيز من بعد بالجير الأبيض، و النوع الأول إختصت به صناعة حضارة المجموعة (أ) وحدها حيث إنه لم يوجد له مثيل لا فى مصر المعاصرة و لا فى الحضارات السودانية التالية.

من الناحية الفنية تمثل صناعة فخار المجموعة (أ) المتأخرة ذروة فى فن صناعة الخزف السودانى لا يضاهيه إلا أفخر الصناعات الخزفية فى كرمة و مروى.

لقد كان لصناعة الفخار فى الماضى إستعمالان رئيسيان : الأول إستعمال منزلى لأغراض الطبخ، والحفظ فصنعت قدور لطهى الطعام و حفظه و سلطانيات كبيرة للحفظ و أخرى صغيرة لتقديم الطعام وأوانى أصغر
للشرب، أما الإستعمال الثانى إستعمال طقسى، فكانت الأوانى الفخارية تقدم كقرابين للموتى أو كحاويات لطعام القربان و هذا يفسر وجود أعداد كبيرة منها فى القبور و مواقع الدفن.

الفخار السودانى القديم بعضه تمت دراسته دراسة دقيقة متأنية إنتهت بتصنيفه بطريقة علمية متقدمة فأصبح من الممكن إستعماله فى التاريخ، حدث هذا مع فخار الفترتين المروية والمسيحية الذى قام بدراسته و تصنيفه البروفيسور (وليم اَدمز)، لكن فخار المجموعة (ج) لم يحظ بمثل هذه الدراسة و بالتالى لا يمكن إستعماله فى التاريخ، لكن هنالك كثير من الملاحظات الهامة حوله قدمها علماء و اَثاريون أهمها دراسة الخبير (بيتلك 1968م) و ملاحظات (رايزنر)، (فيرث شتاليذورف ويونكر).

من حيث الصناعة، فقد تأكد أن أهل المجموعة (ج) لم يستعملوا العجلة قط حيث كان كل فخارهم مصنوعاَ باليْد، رغم ذلك فقد كان متيناً و بخاصة فى الفترة المبكرة و الكلاسيكية، أما فخار الفترة الأخيرة فقد شهد تدهوراً فى كل النواحى.

أميز أشكال أوانى المجموعة (ج) هى السلطانيات بمختلف الأحجام هنالك أيضا الجرار العادية و القلل و البُرام (لوحظ غياب الأشكال مثل الفناجين و الصحون و الكاسات).

الألوان تركزت حول لونين الأحمر بدرجاته المختلفة و يشمل البنى و اللون الثانى هو الأسود،أما اللون الأبيض فقد كان يستعمل لأغراض الزخرفة فقط، بعض الأوانى كانت تتخذ لونا أحمراً من الخارج وأسوداً لامعا من الداخل و تكون لها حواف سوداء، وهى بذلك تنكرنا بصناعة فخار المجموعة (أ) (الفخار الأحمر ذو الحافة السوداء) الأوانى الحمراء كان بعضها يزخرف و بعضها يترك من غير زخرفة، بعض الأوانى كانت سوداء كليةً،أى من الداخل والخارج وقد تميزت هذه بأسطحها اللامعة المصقولة و الزخرفة بأشكال هندسية غائرة أو محفورة مملؤة بلون أبيض من جير أو مادة مشابهة.

هذا الفخار الأسود ذو الزخارف الهندسية المحززة البيضاء لم يوجد له مثيل فى السودان من قبل، و لهذا فهو يعتبر من أميز خصائص حضارة المجموعة (ج) إن تقرير ((اَدمز Adams): يوجد شبه قوى بين صناعة فخار المجموعة (أ) و المجموعة (ج) لا شك أنه يقصد به الفخار الأحمر ذو الحافة السوداء.)
.(William Adams.143_1977)

(يعتقد (اَركل). أن صناعة فخار المجموعة (ج) الأسود يشبه من حيث الزخرفة فقط فخار حضارة جسر أم درمان (خورأبوعنجة) لكنه يؤكد على وجود إختلاف واضح فى الأشكال.)

.(A.J.Arkell,M.C.,B.Litt.,F.S.A. 47_48_1961.)

بالرغم من غلبة الزخرفة بالأشكال الهندسية فقد وُجدت نماذج لآنية استعملت فيها زخارف حيوانية و بشرية و بطريقة مميزه أنفرد بها أهل هذه الحضارة.

وجدت فى بعضقبور المجموعة (ج) بعض الآنية الفخارية المصرية المصنوعة على العجلة و التى يعتقد أنها وصلتهم عن طريق التجارة، الفخار المصرى المستورد انتشر بصورة أوسع فى فترة الإضمحلال الأول لكنه تقلص جداً فى فترة الدولة الوسطى التى قام ملوكها بإحتلال أرض المجموعة (ج).

صناعة الخزف فى حضارة كرمة:

(تعتبر كرمة ثانى دولة أفريقية بعد مصر الفرعونية أكتشفت و أجادت صناعة الفخار. وقد كانت صناعته من الدقة بحيث إعتقد ريزنر أنه كان يصنع بإستخدام العجلة إلى أن أثبت آدمز أن صناعته كانت تتم بإستعمال الأيدى فقط.)(أمل عمر ابو زيد.1992م.43).

((وجود بعض المعثورات ذات الطابع المصرى بها يشير إلى وجود بعض المصريين من العمال و الصناع المهرة داخل هذا المركز تحت الحماية النوبية، كما يدل على طبيعته كمركز تجارى هام و ملتقى للتجار و مختلف الصناعات اليدوية و على الجانب الآخر فوجود ذلك المركز ذو الطابع المتميز مؤشراً هاماً على تطبيع العلاقات بين مصر و السودان فى ذلك الحين و ربما يعتبر مؤشراً آخراً على قوة تلك المملكة السودانية و إمتداد سلطتها و نفوذها حتى استطاعت إحتكار التجارة بين مصر ووسط و جنوب أفريقيا.)).(أمل عمر ابو زيد.1992م.38).

أهم ما يميز حضارة كرمة صناعة ذلك الفخار الممتاز الذى يعرف لدى علماء الآثار بخزف كرمة،و الذى يعتبر أجمل خزف صنع وعرف فى وادى النيل منذ فجر التاريخ، و قد إمتد أثر المجموعة الحضارية (x) من سقوط مروى فى القرن الرابع الميلادى إلي ظهور المسيحية فى السودان فى القرن السادس، كما أن أثر الثقافة المروية فيها جلى و خصوصاً فى فخار هذا العصر.

صناعة الخزف ما قبل كرمة:

إن أقدم أنواع الفخار يرجع إلى ما عرف بحضارة ما قبل كرمة و الذى جمع من على سطح الأرض و الذى تغطيه مقابر شيدت خلال الألف الثانية قبل الميلاد، فإن تميز فخار ما قبل كرمة عن كل ما تم العثور عليه من الطبقات السكنية بالمدينة القديمة فقد توفرت مقدمات له و يشير وجود الأوانى الحمراء ذات الحافة السوداء إلى وجود تقنية فرضت نفسها مع بدايات فترات كرمة، كما تبرهن أيضا على أن السلطانيات تتشابه كثيراً فى شكلها و لونها مع مثيلاتها المتداولة بين الأجزاء القديمة بالمقابر، و نجد أن الفخار المخصص داخل المنطقة السكنية بكرمة بلا شك كان معاصراً لفخار المجموعة (أ) النوبية جزئياً، بل و تظهر إختلافات تميزها، فبعض الشقف الفخارية عليها ممارس عليها تقنيةالزخرفة التموجية التى نتجت من جراء صقل الزخرفة المحفورة رأسياً و عرف بها الفخار التموجى و فخار صنع من طينة بلونها الطبيعى مزانة بزخارف هندسية و طلاء أحمر قريبة الشبه أيضاً بفخار المجموعة (أ) بالنوبة السفلى.

أوضحت الأعمال التى أجريت داخل المدينة التاريخية أن المبانى ذات الأطوار الثلاثة بكرمة وزعت جغرافيا و زمنياً إعتماداً على هندسة المبانى، و توزيع قطع أنواع الفخار بحيث تتواجد أنواع الشقف الفخارية فى وسط المنطقة المشيدة بينما يتوزع الفخار المتأخر نحو المناطق الهامشية و الأطراف فيتوفر فخار كرمة القديمة بكثرة على الجوانب المباشرة للدفوفة و هذا ما يقودنا إلى القول بأن المنطقة السكنية الأولى غطتها المبانى الدينية، و لهذه المادة ما يوازيها فى منطقة من المقابر متأخرة نسبياً فى فترة كرمة القديمة و جمع إنتاج كرمة الوسيط بكميات وفيرة من المناطق الوسطى من المدينة لكنه يبدو متصلا بالفخار العادى الشائع، و يندر فى المناطق

الجنائزية، و أما فخار كرمة الكلاسيكية فهو قليل من وروده فى المساكن المندثرة، و يتوفر بكميات كبيرة خاصة فى الإضافات بالدفوفة و الإمتدادات المتأخرة ببقية المدينة.

صناعة الخزف فى كرمة الوسطى:

تتصف زخارف و أشكال خزف كرمة الوسطى بالثبات لا يختلفان إلا طفيفاً كل هذه الفترة الطويلة، و فخار المدينة الذى جمع من الحفريات له تنوع أقل وهو أكثر خشونة مما جمع من المقابر، و تتواجد غالبية الأوعية بداخل الأضرحة و تتميزالسلطانيات و الأطباق حمراء بحافة سوداء، و توجد بعض الأمثلة مصنوعة من طينة سوداء فى بعض القبور و مزانة بتصاميم بلون أبيض زيادة فى الزخرفة، و هى نفس الطريقة التى نفذت بها زينة على سلطانية ذات لون أبيض مصفر مغطى على السطحين بلون محمر، و لهذا الفخار شكل كروى و تتغير أنحناءة الوسط او الجزء العلوى ببطن الإناء و مقطعه العلوى يميل إلى الداخل و يكون مستوياً و أسفل الإناء مقعر أو محدب فإن كانت غالبية هذه الأوعية شديدة العمق فمن المقرر أن السلطانيات ذات مقطع له بروز حاد محدب بشدة و أقل إرتفاعاً.

صناعة الخزف فى كرمة الكلاسيكية:

(يقول بونيه : أن هذا الفخار عريق الأصالة فى التقليد الفخارى المحلى، فإن أصاب الفنانون حينئذ بعض الكمال فى فن التشكيل الذى صاغوه فى شكل الأوانى، فقد سبقهم إليه أسلاف لهم أثبتوا سيادتهم فى مثل هذا الفن إبان الفترات الأولى.).(أحمد مخمد على حاكم.197م.246).

حقاً قد كان بعض أنواع فخار ما قبل كرمة من الدقة و الرقة مثلما كانت أجمل قطع فخار الفترة المتأخرة ومع ذلك برزت كرمة الكلاسيكية بدراية كبيرة فى فن الحرق، و يشهد ذلك الشريط المعدنى الذى يقع ما بين سطح الإناء و حافته فى الفخار الدقيق الأحمر و الأسود و ربما تميز الفنانون على هذا التأثير صدفة فى الأصل إذا إعتبرنا أن البقع الرمادية التى بدت على بعض الأوانى فى نهاية كرمة الوسطى و التى ربما كانت من جراء إرتفاع فى درجة الحرق.

(إن أكبر مجموعة فخارية استعرضها (رايزنر) فى كتابه كانت من الفخار الرقيق حيث إفترض إلحاق كل الإنتاج بصناع مصريين و أنه فى النهاية فخار فريد و جنائزى و طقسى و الذى لا شك فيه الاَن هو أن هذا الفخار هو عمل إبداعى لحرفيين محليين، و قد لا يستبعد تماما إحتمال الإنتاج بواسطة عجلة الفخرانى فأحد القدور البسيطة المحدودة الاستعمال شُكلت بعدة طرق مركبة وعلى كلٍ فهى لا توجد على فخار هذه الفترة إلافى حالة المستورد أصلاً من مصر و الذى يظهر إكتشاف صناعة عجلة الفخرانى فيه.).(أحمد مخمد على حاكم.1970م.19).

صناعة الخزف فى حضارة نبتة:

ظهرت مملكة نبتة إلى حيز الوجود فى القرن الثامن قبل الميلاد، و تقع أراضى هذه المملكة أسفل الشلال الرابع بقليل.

كانت نبتة حصناً من حصون حدود مصر الجنوبية أيام أمنحتب الثانى و كانت قبل ذلك محطة تجارية هامة على الطريق الذى يصل مصر بالسودان.

ظل تاريخ مملكة نبتة غامضاً حتى تم إكتشاف ست مدافن ملكية، ثلاث منها فى المنطقة المحيطة بمدينة نبتة بالقرب من مروى الحالية أما الثلاث مدافن الأخرى فقد أكتشفت فى المنطقة المحيطة بمروى القديمة (بالقرب من شندى و كبوشية).كانت المدافن التى كشف عنها النقاب فى منطقة نبتة هى مدافن نورى و الكرو و مجموعتان من الأهرام بالقرب من البركل. و فى البركل كشف عن أهرام أربعة من فراعنة الأسرة الخامسة و العشرين هم بعانخى و شيكا و شبتاكا و توت آمون الذين حكموا مصر و كوش (يطلق إسم مملكة كوش على مملكة نبتة ثم مروى) (فوزى جمال الدين. على محمود على.1973م.58).

يلاحظ من آثار هذه الحقبة من تاريخ السودان أن حضارتها و ثقافتها كانت مصرية خالصة و أنه لم يقم فيها فن أو ثقافة وطنية، ثم أن ملوك نبتة العظام الذين استعمروا مصر كانوا قد جلبوا لبلادهم الصناع و الفنانين ليستفيدوا بهم فى تعمير البلاد و ساعدهم فى ذلك أنهم كانوا ملوكاً للسودان و مصر فأحيوا عادات الدفن المصرية و استمروا فى عبادة إله مصر و فى استعمال الكتابة الهيروغليفية و الفن و العمارة المصرية.

وقد إزدهرت عاصمة نبتة فى هذا العهد و إتسعت فشملت بالإضافة إلى نبتة المقر الرسمى للملك مدينتى نورى و الكرو حيث كان يدفن الملوك الكبار رجال الدولة و جبل البركل حيث كانت تقوم العاصمة الدينية.

(وعندما بدأت تتدهور مملكة نبتة تدهورت الفنون، و الحرف كانت تفقد جدتها و على مر الأجيال أصبحت حضارة بلاد النوبة تقليداً مشوهاً لحضارة مصر تنقصها الروح و تفتقر للإبتكار بعد أن كانت صورة لحضارة مصر).(حسن سليمان محمود.جلال الجاويش.بدون.36-37).

صناعة الخزف فى مروى:

(أما عن حضارة مروى فقد كانت إمتداداً طفيلياً لحضارة نبته وهى تسكتشف لنا فى كثير من فتراتها عن سلسلة من التدهور الحضارى الذى بدأ بعد إنسحاب السودان من مصر كما تكشف لنا فترات أخرى فيها خصوبة حضارية و ثقافية و مادية.).(سامية بشير.1999م70.)

نجد أن الفخار فى مروى ينظر إليه كإمتداد جغرافى للفن المصرى مع إضافة طفيفه، و لكن هذا الحكم ليس عادلا، فالفن المروى له مذاقه الخاص و دراسته تظهر خواص تفرده.

أورثتنا مروى ثقافة ما زالت تمتد لآلاف السنين فنونها، ما زالت تكسب شهرة و قيم و أهمية قصوى بدأت مع الحضارات الأولى التى ظهرت فى الجذء السودانى من وادى النيل (أي منذ حضارة المجموعات وحضارة كرمة) و لقد استطاع المرويون أن يقودُوا السودان نحو وحدة ثقافية و بناء شخصية قومية استطاعت أن تستوعب الكثير من صيغ الحضارات العالمية المعاصرة، ففى مروى توحدت معايير القيم الجمالية للفنون ببنائها لنظام إجتماعى متفرد دام حوالى الألف و خمسمائة سنة، كما نجد فيها النحت و الرسم و الزخرفة.

صناعة الخزف فى المجموعة الحضارية (x):

و بعد عصر مروى مرت على السودان فترة غامضة لا يعرف عن أخبارها إلا النذر اليسير، فقد جاء البلاد قوم لم يكتشف الآثريون بعد إلى أي جنس ينتمون،و هؤلاء هم الذين يسميهم الآن علماء الآثار المجموعة الحضارية (x)، و يمتد عصرهم من سقوط مروى فى القرن الرابع الميلادى إلى ظهور المسيحية فى السودان فى القرن السادس.

(و يلاحظ أن ثقفتهم أخذت كثيراً من مصر الرومانية، كما أن أثر الثقافة المروية فيها واضح و خصوصاً فى صناعة الفخار.) (نجم الدين محمد شريف.1971م.41).

صناعة الخزف فى الحضارة المسيحية:

على أنقاض مروي قامت ثلاث ممالك نوبية، جاء ذكرها لأول مرة فى التاريخ، فكانت فى الشمال مملكة النوباطيين التى إمتدت من الشلال السادس، وعاصمتها فرس.

و يليها جنوباً مملكة المقرة، و تنتهى حدودها الجنوبية عند مكان عرف (بالأبواب) عند الكتاب العرب.و يظن أنه بالقرب من كبوشية جنوب مدينة مروي القديمة بقليل، و كانت دنقلا العجوز عاصمة هذه المملكة، ثم مملكة علوة و عاصمتها سوباالتى تقع بالقرب من الخرطوم.

من مظاهر هذه الحضارة السودانية فى العصر المسيحى مخلفات الكنائس التى نجدها مبعثرة هنا و هناك ما بين أسوان و سنار.

أما عن الفنون فصناعة الفخار هى الأكثر ظهوراً فى ذلك الوقت. فالفخار جميل و ملفت للأنظار، ووجدت منه كميات كبيرة فى أماكن مختلفة فى شمال السودان.

(و هناك نوعان من الفخار المنقوش الجميل،فخار دنقلا و فخار سوبا، فالأول غالباً يشتمل على أوان صغيرة من طينة ناعمة عليها طلاء أبيض أو أصفر فاتح أو برتقالى. و على الكثير من هذه الأوانى نجد أشكالاً لحيوانات مطبوعة مختومة فى الوسط، كما نجد أيضاً شعارات مسيحية و أيضاً نجد على الكثيرمنها رسوم تقليدية مثل رؤوس الطيور و الصلبان و يتضح أن هذا الفخار قد أُقتبس من فخار مروى الجميل، وأن النقوش والرسوم التى عليه تأثرت بالفن القبطى.).(نجم الدين محمد شريف.1971م.45).

أما فخار سوبا ، فهو فخار جميل منقوش عليه طلاء أسود عمل بعد الإحراق، و كذلك نجد على هذا النوع من الفخار زخرفة بنقط و على شكل زهور صغيرة بلون أحمر و أصفر فاتح، فإننا لا نعرف ما يماثله من دنقلا، و لا من مصر و لا من الأقطار المجاورة.

ولكن نوع الفخار و المستوى الفنى الرفيع الذى نلمسه فى الزخرفة يدلان على وجود حضارة من ورائه، و بجانب هذا أنتجت سوبا فخاراً آخراً يحمل الطابع المحلى (أوانى كبيرة عليها طلاء أسود أو أحمر و مصقول صقلاًجيداً).

تقنيات صناعة الخزف النوبى

فى العصور الحديثة بدأت تأخذ الآلة أهميتها المتصاعدة و مكانتها البارزة فى مجال الإنتاج الصناعى بعد ظهور الثورة الصناعية، و ما تهتم به الدراسة أهمية مادة الطين فى مجال إنتاج الخزف الصناعى.

الطين هو المادة الأساسية لصناعة الخزف النوبى، و من أهم أنواع الطين التى إستعملت فى الصناعة هو طين النيل (الطمى) و طين الجروف من ضفاف الأنهار و الأودية و الخيران و كانت تلك الأنواع متعددة الألوان،منها الأسود و البنى و الطينة الصفراء و الحجر الجيرى ووجدت كل هذه الأنواع ممتدة فى منطقة النوبة حتى مناطق مصر السفلى و العليا.

(إهتم النوبيين فى إنتاجهم للخزف للقيمة الأثنية أكثر من إهتمامهم للقيمة التقنية أو استمرارية بقائها بل كانت الصناعة تعبر عن الأثنية.).(**William Y. Adams.non. 26**)

استعملوا طين الطمى للزخرفة بتقنية أكثر بساطة عوضاً عن استعمال طينات مصنعة ذات أبعاد تكوينية جديدة. بدأت الصناعة على عجلة الخزاف المصنعة يدوياً و التى تشبه فى تكوينها شكل المخروطة وهى جاءت مؤخراً.

من أشهر الخامات التى استعملت فى الطلاء الزجاجى الكوارتز و الفلسبار و الحديد، تركيبة الخزف النوبى تتميز بأنها مسامية و رقيقة الجدار فى رقة قشرة البيض هش و قابل للكسر لوجود ذرات الرمل فى خلطة الطين.

و لقد توصلت الدراسة إلى أن الخزف الكرمى أنتج من نفس الأطيان التى صنعت منها الخزفيات المصرية فى تلك الفترة و يلاحظ إسلوب الخزف النوبى فى الزخارف المميزة و استعمال طين النيل و طينات ذات ذرات مختلفة للزخرفة صفراء و رمادية اللون كما فى الخزف الكرمى إلا أن الخزف النوبى لم يكن بجودة الخزف الذى يوازيه فى تلك الأيام فى مصر و يعتبر الخزف النوبى من أجود الخزفيات و أول صناعة للخزف فى العالم بالرغم من أنها كانت جيدة إلا أنها لم تكن تنتج بكميات و أنواع متعددة للنوبة، إتميزت المنطقة بطبيعة الزخرفة و الخامات التى تصنع منها الطينات.

اهم النتائج:

استعرضت الدراسة الفترات التاريخية فى مجال صناعة و اكتشاف الفخار و الخزف فى السودان و هى فترة العصر الحجرى القديم و الوسيط و الحديث، ثم فترة حضارة كرمة و مروى و نبته و تواصلت للنتائج الآتية:

1/الحضارات السودانية تركت مجهود مجتمعاتها من خلال الآثار المادية التى خلفتها فى مدافن الملوك من الاوانى المصنوعة من الفخار و هى من اهم الأنواع التى تدل على حضارة أصل السودان القديم.

2/ قلة انتاج فخار سودانى اليوم بالرغم من أن فخار الحضارات السودانية القديمة يتفرد بمستوى تقني و فني رفيع خاصة فيما يتعلق بطرق صناعته و وسائل حرقه و صقله التى جعلته يتميز بالرقة و النعومة و الجمال.

3/ ارتبط السودان بالموروث الشعبى و التجارب و الخبرات المتلاحقة فى عملية التشكيل الفنى.

و للدراسة توصيات أهمها.

المواد الخام المحلية متوفرة لقيام صناعات للخزف بإحتياجاته المختلفة و لذلك توصي الدراسة بتشجيع الباحثين فى مجالات الخزف حتى تكون هنالك خطط لتنمية هذه الصناعة.

المصادر و المراجع:

1 / أمل عمر أبو زيد خليفة– الملامح العامة لتاريخ السودان القديم– دار الزهراء الخرطوم– بدون تاريخ.

2/ أحمد على حاكم –حضارة نبتة و مروى،اليونسكو (1985م)

3/ حسن سليمان محمود– جلال الجاويش– تاريخ السودان فى العصور القديمة–مطابع الزمان –الخرطوم– بدون تاريخ.

4 / سامية بشير – تاريخ الحضارات القديمة – 1999م

5/ فوزى جمال الدين،علي محمد علي– تاريخ المدنيات القديمة(للصف الثالث الثانوى العام) دارالنشر التربوى–الطبعة الرابعة– (1973م).

6/ مصطفى عبده– الإنسان ذلك الكائن الجمالى المكرم_جامعة النيلين كلية الآداب _2005م.

English Reference:

A.J.Arkell, M.C.B.litt.F.S.A – 1961

William Adams 1977

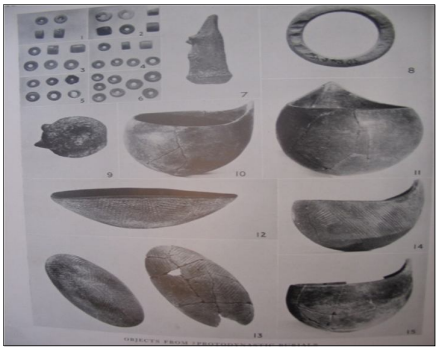

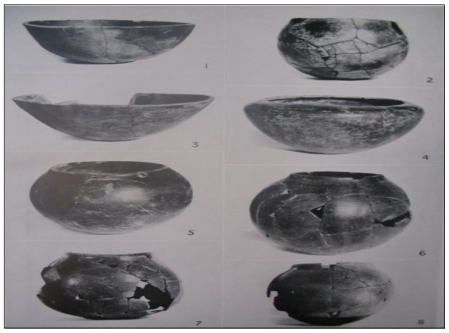

نمازج من الخزف فى العصر الحجرى الوسيط و الحديث

صورة رقم (2,1) المصدر

Early Khartoum-J.Arkel(1961)

نمازج من صناعة الخزف الكرمى صور رقم (4,3,2,1) المصدر السودان ممالك على النيل ص(61-62)

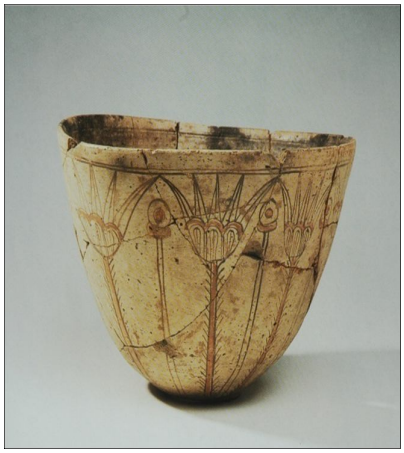

نمازج من صناعة الخزف المروى صورة رقم (5,4,3,2,1) المصدر السودان ممالك على النيل ص(343-355-345)